شهرزادُه

ناصر الرباط ❖

تك تك تك، كان صوتُ المفتاح يقرقع وهو يدور في القفل الحديدي الثخين. اشرأبّتْ أعناقُ الرجال القليلين، الجالسين على كراسيهم أمام محلاّتهم المتناثرة في الزقاق الضيّق، لرؤية خروج عمّ عيد من بيته. وسرعان ما أطلّ عبر الباب الخشبي، بقامته السامقة وابتسامته المحيِّرة. واستدار معطيًا ظهرَه للزقاق وناسِه لكي يُدخلَ طرفَ السلسلة المعدنية في القفل، ويقفلَه ثانيةً خلفه، ويشدّ السلسلةَ ليتأكّد من أنّها محيطةٌ بدرفتَي الباب. ثم استدار من جديد وابتدأ بالسير ببطء شرقًا نحو شارع محمد علي، محيّيًا الرجالَ الذين يحملقون فيه، بهزّاتٍ خفيفةٍ من رأسه، وهمهماتٍ تكاد لا تُسمع، من دون أن يتوقّف ليردّ على تحيةِ أيٍّ منهم، مع أنّهم كانوا جميعًا يفخّمون أصواتَهم وهم يُلْقون بالتحية: «سعيدة يا عمّ عيد.»

لم يكن ذلك غريبًا بالنسبة إلى سكّان الحارة. فالعمّ عيد، الذي يقطن وحيدًا في الدوْر الأعلى من هذه العمارة الرائعة ذات الأدوار الثلاثة، قد انقطع عن الناس منذ فترة ليست بالوجيزة. وهو قلّما يتبادل الحديثَ مع أيّ من جيرانه أو يتدخّل في أيّ شأن من شؤون الحارة وشجونها، مع أنّه وُلد فيها وعاش جلَّ عمره في المنزل ذاته. وهو قد أقفل على نفسه العمارةَ كلَّها بهذه السلسلة الغليظة، لا يزور أحدًا ولا يأتي إليه أحد. يخرج كلَّ يوم قبل غروب الشمس بساعة أو أكثر، ويمضي إلى السوق القريب ليتزوّد بالقليل القليل ممّا يحتاجه من طعامٍ أو شراب. ثم يعود دومًا قبل الظلام، ويدخل عمارته، ليقفلَ السلسلةَ وراءه، فلا يراه أحدٌ أو يسمع صوتَه حتى اليوم التالي.

هذه العمارة، التي يعرِّفها سكّانُ الحارة بعمارة «الستّ ملك،» هي أحلى عمارة في منطقة الحلْمية كلِّها، المعروفة أساسًا بمبانيها السكنية الرائعة التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر. لا أحد يعرف مَنْ بناها أو متى، ولا مَنْ هي الستّ ملك التي سُمِّيت العمارةُ باسمها. ولكنّ الكلّ يعترف بأنّ العمارة شاهدٌ بديعٌ على الزمان الجميل الذي ولّى. وهي، في رأي الخبراء الذين زاروها، تحفةٌ من تُحَفِ التصميم المعماري السائد في مباني نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بطرزه المختلطة وبمشربيّاته وزجاجه المعشّق وأقواسه الدائرية ذات النِّسَبِ المتطاولة وبعض تأثيرات الفنّ الجديد في زخارفه وكسوة فتحاته. ومع أنّها عانت كثيرًا جوْرَ الزمان وتعاقُبَ الأيدي عليها، فهي مازالت تحتفظ بالكثير من سحرها وغموضها بالنسبة إلى سكّان الحارة الذين عرفوها دومًا مَسْكنًا لعائلاتٍ ثريّة، يَعْمل رجالُها في التجارات المربحة مثل استيراد القهوة والشاي، وتَرْفل نساؤها بالحرير والغالي من المجوهرات. أوّلُ سيارةٍ خاصّةٍ دخلت الحارةَ من طراز «مايباخ» الألماني الفاخر كانت ملْكًا لعائلة القناديلي التي سكنتْ في الدوْر الثاني من عمارة الستّ ملك قبل الحرب العالمية الثانية. وأوّلُ فتاة في الحارة حصلتْ على شهادةٍ جامعيةٍ كانت من عائلة الزيّات التي سكنتْ أجيالٌ متتابعةٌ منها في الدوْر الثالث من العمارة منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

عمّ عيد، البالغُ من العمر سبعين سنة، هو ابنُ الستّ نظيرة التي حصلتْ على الشهادة الجامعية الأولى في الحيّ. وهو مولودٌ في عمارة الستّ ملك التي وُلدتْ فيها والدتُه أيضًا، وتزوّج فيها جدُّه التركيُّ الأصل وجدّتُه، اللذان مازالت صورةُ زفافهما المهيبة مؤطَّرةً في غرفة جلوس حفيدهما. عاش العمّ عيد حياتَه كلَّها هنا، ماعدا فترة الستينيات وبداية السبعينيات، إذ كان موظَّفًا معارًا لدولة الكويت حيث عمل في تدريس الأدب العربي في ثانوياتها. علّم هناك أجيالاً على حبّ اللغة العربية وتذوُّقِ شعر بشّار بن برد وأبي تمّام والبحتري وابن الرومي وأبي نواس وأصحابه. عاد وزوجتَه وابنَه من الكويت بعد حرب أكتوبر، واستقرّ في منزل العائلة مع أمه التي كانت قد شاخت ثم ماتت عقب اغتيال السادات بأشهر. وكبر الولدان وتزوّجا وخرجا إلى الأحياء الجديدةَ، تاركيْن والديْهما في المسكن القديم. ثم ماتت زوجةُ عمّ عيد في سنة موت الأميرة ديانا ذاتها، فبقي وحيدًا. رفض عروضَ ولديْه بالانتقال والعيش معهما وأسرتيْهما. وحتى عندما ماتت آخرُ قاطنات الدوْر الثاني وترك وريثوها المنزلَ فارغًا ومغلقًا، ثم أفرغ ساكنُ الدوْر الأول مسكنَه أملاً في بيع العمارة بأكملها إلى متعهّدي بناء يدفعون فيها ثمنًا مجزيًا، ظلّ العمّ عيد على عناده يَرفض الخروجَ من منزله، وتشبَّث بحقّه في البقاء وحيدًا حيث عاش

❖ - كاتب سوري. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

أحلى أيام حياته. وبعد أن أرسل له جارُه السابق بعضَ الفتوّات ليخوّفوه فيرحَلَ، نزل العمّ عيد إلى سوق السلاح واشترى هذه السلسلةَ الغليظةَ وأقفل العمارةَ بقفلٍ ثخين، وحبس نفسَه داخلها، وحَبس العمارةَ عن كلِّ مَنْ تسوّل له نفسُه التسلُّلَ إليها... ولو أنَّ هذا القفلَ لم يمنعْ سارقًا في ظلام الليل مِنْ فَكِّ لوحٍ خشبيٍّ محفورٍ بالأرابيسك في أسفل باب الدخول وسرقتِه.

❖ ❖ ❖

«ما تقعد شويّة، تاخدْ كبايّة شاي معانا ياعمّ عيد،» صرخ لبيب أفندي عندما مرّ العمّ عيد أمام الشلّة المجتمعة على القهوة الصغيرة عند رأس الحارة. لم يتوقّف العم عيد، بل همهم بكلمات غير واضحة باتجاه لبيب أفندي، واستمرّ في سيره الحثيث نحو عمارته. التفت لبيب أفندي إلى الشلّة وكرّر السؤالَ الذي سألوه كلُّهم مئاتِ المرات من دون أن يخفض صوتَه: «حصل له إيه دَهْ؟ ولا بيسلّم ولا بيتكلّم؟ أكيد جرى لعقله حاجة م الوحدة.» ابتسم الحاضرون بخبثٍ، مُثْنين على كلام لبيب أفندي، ما عدا الحاج أحمد الذي بقي ساكتًا وهو ينفث دخانَ شيشته. تنحنح قليلاً ثم قال بصوتٍ منخفض مراعاةً للعمّ عيد الذي كان شبحُه مازال يَلُوح في نهاية الزقاق: «والله يا إخوانّا حالتُه غريبة. عقله يوزنْ بلد. أستاذ وملو هدومه. وعيلته م العِيَل المحترمة في الحلْمية. والدته، اللّه يرحمها، كانت متعلّمة في الجامعة. ووالده كان موظّف كبير وعنده عربيّة أمريكاني. وعياله أفندية متعلّمة، واحدْ ساكِنْ في مصر الجديدة، والتاني في المعادي وبيشتغل مع الأميركان. إزاي سايبينه كده لوحده؟»

«مش بس كده،» تدخّل عليّ، صبيُّ القهوة، «بقالو سنين ما بياكُلْش إلاّ العيش والجبن والزيتون. ولا لحمة ولا طبيخ، أصل أنا سألت البقّال اللي بيشتري منه وقال لي إنَّه ما بيشتريش غير الأصناف دي والشاي والسكّر وشويّة شمع وبخور.» «أيوه،» ثنّى عادل المكوجي على كلام الحاج أحمد وعلى صبيّ القهوة، «بقاله سنين ما جابش حاجة للمكوى، مع إنه قبل كده كانت حاجته وحاجة الستّ والأولاد طالعة نازلة لعندي.» «سبحان مغيِّر الأحوال،» قال الحاج أحمد لينهي الحديثَ الذي لا طائل منه.

ابتسم العمّ عيد الذي وصلتْه طرطشاتٌ من الكلام عنه، ولكنّه استمرّ في سيره ولم يلتفت. لاحظت الستّ زينب، بائعةُ الفاكهة، الابتسامةَ الخفيفةَ ولم تعلِّقْ عليها عندما توقّف العمّ عيد أمام محلّها الضيِّق، المقام في الفراغ المتروكِ بين عمارتين من بعض ألواح الخشب، وطلب بعضَ الفاكهة. «عندي خوخ ولا أحلى،» قالت زينب. «من فضلِكْ ادّيني تلاتْ خوخات،» أجابها العمّ عيد بصوتٍ خفيضٍ ومهذّب ولكنّه واضح تمامًا، «وكمان تفاحتين حمر، وشويّة عنب.» «من عينيَّ،» قالت زينب، واختارت من كلّ صنف أحسنَ الموجود، ووضعتْه في كيسٍ ورقيّ. «عايزة منِّي كام؟» سألها. «جنيهين بس،» أجابت. فأخرج العمّ عيد من جيبه محفظةً جلديةً قديمةً وأخرج منها ورقة عشرين جنيهًا جديدة تمامًا وأعطاها زينبَ، التي ناولته الباقي مباشرةً. «شكرًا جزيلاً،» قال لها، وأخذ الكيسَ ومشى من دون أن ينتظر جوابها. «عفوًا، مع السلامة يا بيه،» صرخْت زينب وراءه وهي تتلفّت حولها لترى إنْ كان أحد في الحارة يتابع الحوارَ المقتضبَ بينهما، ولكنّها لم تلمح أحدًا ينظر نحوها.

❖ ❖ ❖

مالت الشمسُ إلى الغروب، وانعكستْ ظلالُها الذهبيةُ الدافئةُ على واجهات المباني المغبّرة في الحارة، مانحةً إيّاها لوهلةٍ وجيزةٍ بعضًا من ألقها الماضي عندما كانت البيوتُ غيرَ البيوت والناسُ غيرَ الناس. وسرعان ما ابتدأت اللمباتُ البيضاءُ الشديدةُ الإبهار، التي أصبحتْ رائجةً في محال القاهرة هذه الأيام، بإنارة واجهات المحلاّت المتفرقة، مغيِّرةً من شكل الحارة وظلالها. وصل العمّ عيد إلى عمارته،

فوضع كيسَي المشتريات على الأرض وأخرج المفتاحَ من جيبه. أمسك بطرف السلسلة وشدّها إلى أن وصل القفلُ إلى يده. أدخل المفتاحَ في القفل وأداره ببطء. فتح البابَ وأخذ الكيسين بيد واحدة، واستدار ناحيةَ الأسطى حسن النجّار، الذي كان قد فرغ من عمل يومه ورشَّ الطريقَ أمام محلّه بالماء واستكان على كرسيّه الخشبي الأخضر يدخّن شيشتَه ويشرب شايَه وحده، وقال له: «تصبح على خير يا اسطى حسن.» «وانت بألف خير يا عمّ عيد،» أجاب حسن كعادته من دون أن يزيد. دخل العمّ عيد عمارته وأغلق البابَ خلفَه، وسَمِعَه الأسطى حسن يُقْفل السلسلةَ بالقفل الكبير ويشدّها. ابتسم الأسطى حسن بسخرية، وتساءل بينه وبين نفسه: «ايمتى حتنسى تقفل وراك حتى أدخل العمارة وآخد كلّ الحاجات الخشب الحلوة في البدروم؟» فالأسطى حسن يَعْرف جمالَ أعمال الخشب في عمارة الستّ ملك: مشربيّات ذات حنيات، وأعمدة دقيقة مزدوجة، وأفاريز خشبية مزخرفة، ودرفات نوافذ مستطيلة من الزجاج الملوّن متناغمة في تشكيلٍ جميلٍ فوق درفات خشبية مزوّقة بالرسوم الهندسية الدقيقة والمحفورة. وهو يعرف أيضًا مَنْ سيَدْفع الكثير مقابلَ الحصول على هذه النماذج النادرة. وكذلك يعرف العمّ عيد أنّ الأسطى حسن هو الذي سَرَقَ لوحةَ الباب الخشبية ليبيعها إلى واحدٍ من تجّار الأنتيكات، وأنّه يترصّد الفرصةَ ليسرقَ المزيد. وكلٌّ من الرجلين ينتظر زلّةً من الآخر.

ولكنّ العمّ عيد سرعان ما نسي الحارة وسكّانها ومشاكلَها وهو يصعد درجات السلّم الدائري بتؤدة، في ظلال الغسق التي ترتمي على الجدران الكالحة حوله غامقةً تميل إلى العتمة. لم يكن هناك نورٌ ليشعلَه على السلّم. ولكنّه يحفظ طريقَه عن ظهر قلب، ولن يحتاج إلى نور. تغيّرتْ تعبيراتُ وجهه تمامًا وهو يقف أمام شقّته في الدوْر الثالث. سادت ملامحَه سكينةٌ وحبور، وبانت في عينيه نظرةٌ تلهّف. دخل الشقّة بخفّة، وفتح البابَ المؤدّي إلى الردهة، ثم استدار يمينًا إلى المطبخ ليضع كيسَيْه، وعاد إلى غرفته المفروشة ببساطة تقارب التقشّف. غيّر قميصَه وارتدى خفّي المنزل. وضع شمعتيْن في الصالة وأشعلهما. وكانت هاتان الشمعتان، بالإضافة إلى النور الخافت المنبعث من المصباح الكهربائي أمام سريره في غرفة نومه، مصادرَ الضوء الوحيدة في الشقّة. عاد إلى المطبخ. أخرج المأكولات، ووضع الجبنَ والزيتونَ والمخلّل والفستق في أطباق صغيرة من الزجاج المعشّق وَرِثها عن جدّه. غسل الفاكهةَ ووضعها في طبقٍ كبير من الصيني الفاخر وهو يدندن لنفسه أغنيةَ فريد الأطرش «ساعة بقرب الحبيب أحلى أمل في الحياة.» عاد إلى الردهة ووضع عودًا من البخّور في إناءٍ صغيرٍ وأشعله. أخذ الأطباقَ جميعَها إلى الصالة ووضعها على المنضدة الصغيرة، وجلس على كرسيّ منخفضٍ قربها تحت ساعة الحائط القديمة التي مازالت تعمل بدقة، وكانت عقاربُها تشير إلى الثامنة تقريبًا.

لم يطل انتظارُه طويلاً. بعد دقائق معدودة سمع حفيفَ أقدامٍ خفيفًا آتيًا من داخل المسكن، وتسلّلتْ إلى منخريْه رائحةُ عطر ساحر، هو مزيجٌ من الكافور والعنبر المصفّى، استنشقه بشغف وهو يغلق عينيْه. ثم فتحهما لكي يقع بصرُه على إنسانة رائعة الجمال تتهادى باتجاهه. وجهُها مصقولٌ كالمرمر. عيناها خضراوان لامعتان، تعلوهما أهدابٌ ناعمةٌ وكثيفة. استقامةُ أنفها ودقتُه منحوتتان نحتًا. شفتاها قرمزيتان، وشعرُها هالةٌ ذهبيةٌ تحيط بوجهها البدريّ وتنسدل إلى ما تحت كتفيها اللتين بدتا متألّقتيْن تحت الغلالة الحريرية البيضاء التي لفّتْها حول جسدها الممشوق. ابتسمتْ له بألفة، فردّ الابتسامةَ وهو يتأمّلها من رأسها إلى قدميها الدقيقتين اللتين انتعلتا خفّاً حريرياً مزركشًا. قالت بلهجة يَحْسدها عليها أعضاءُ مجْمع اللغة العربية كلُّهم: «السلامُ عليكَ يا سيدي. أرجو ألاّ أكونَ قد تأخّرتُ عليك.» «وعليكِ السلامُ يا سيدتي، قد فرغتُ منذ قليل فقط،» أجابها العمّ عيد وقد تغيّر صوتُه واكتسب قوةً وجهورًا لم يعرفهما عنه سكّانُ الحارة، «تفضّلي بالجلوس في ركنك، فقد هيّأتُ لنا القعدة.» «أرى ذلك، أدامَ اللّهُ خيرَه عليك،» أجابت السيدة بإعجاب وهي تنظر إلى المائدة أمامها واتّسعت ابتسامتُها عندما رأت الصحونَ الصغيرةَ المتناثرة على المائدة.

جلست السيدة على كرسيّ صغير من الأبنوس المحفور والمطعّم بالصَّدف في صدر المائدة. كان نورُ الشمعتين الخافت يتراقص على وجهها الرائع، يَحْجب منه بعضَ تفاصيله ويلوّن بعضَها الآخرَ بأطياف الأصفر والبرتقالي المتوهّجة. أمسكت السيدةُ بأناملها الدقيقة كتابًا صغيرًا مجلّدًا بجلدٍ أرجوانيّ اللون ثم وضعتْه على طرف المائدة أمامها. تطلّعتْ إلى العمّ عيد الذي كان يتابع حركاتِها بولَه، وقالت

له: «أين وصلْنا في المرة الماضية؟» «وصلنا إلى اللحظة التي دخلتْ فيها بوران على الخليفة المأمون مقنَّعةً، وهو جالسٌ بين جواريها وقيانها يَشْرب ويَسْمع موسيقى لم يسمعْها من قبل،» قال العم عيد الذي كان تلهُّفُه إلى سماع القصة من شفتَي السيدة ملموسًا لمسَ اليد. فاعتدلت السيّدة في مجلسها وصبّت لنفسها وللعمّ عيد كأسيْن من شرابٍ من دورقٍ نحاسيّ ذي رقبة طويلة موضوعٍ على الطاولة. وضعت الكتابَ في حجرها وفتحتْه إلى حيث كانت قد وضعتْ بين صفحتين منه ريشةَ هدهد. ابتدأت القصَّ بصوتٍ هادئ ومتناغم. واندفعت الكلماتُ من بين شفتيها طريّةً ريّانةً أخذت العمّ عيد إلى عالمٍ مسحور، عالمِ الخلفاء في بغداد والجارياتِ المغنّياتِ الذائعاتِ الصيت، عالمِ الفروسية والكرم والحبّ ورغد العيش والشعر المقطَّرِ الموزونِ الذي يحبّه. استكان العمّ عيد في جلسته، يستمع إلى رواية السيّدة بكلّ جوارحه كما لو كان يستمع إلى موسيقى ملائكية.

دقّت عقاربُ الساعة الثانيةَ عشرةَ منتصفَ الليل، والاثنان جالسان على ضوء الشموع التي قَصُرَ فتيلُها وترجرجتْ شعلتُها. السيدة الغريبة تحكي، وعيد يتلقّف كلّ كلمة تخرج من شفتيها تلقُّفَ العطشان الذي وجد أخيرًا ما يرويه. ولكنّه لم يستطع الصمودَ أمام سلطان النوم طويلاً، وسرعان ما استغرق في سباتٍ هادئٍ على صوتها الشجيّ الناعم. قامت السيّدة برفق، فساعدت العمّ عيد على الاستلقاء على الطنافس، وغطّتْه بشالٍ مقصّبٍ مضمّخٍ بالعطر كان معها، ثم خرجتْ بصمتٍ على تراقُصِ آخر بصيصٍ لواحدة من الشمعتين كانت ماتزال تقاوم الانطفاءَ بعدما ماتت أختُها. أطفأت الشمعةَ عندما مرّت بها، وعادت إلى الحجرة الداخلية التي جاءت منها. وسكن كلُّ شيء في الشقة.

❖ ❖ ❖

استيقظ العمّ عيد في الضحى على أصوات الباعة الجوّالين المزعجة. أزاح الشالَ المقصَّبَ والمعطَّرَ وقام من على طنافسه. لاحظ أنّ الصحون على المائدة أمامه مازالت على حالها تقريبًا. وشمّ في الهواء بقايا من رائحة عطر السيّدة، فانتعش قلبُه، وزغردتْ عيناه لذكرى أمسية البارحة المسحورة. لَمَّ بقايا الطعام من على المائدة متجنّبًا المساسَ بالكتاب الصغير الأرجواني التجليد الذي تركتْه السيدةُ وراءها. عاد من المطبخ بعد أن وضع كلَّ شيء في مكانه. تناول الكتابَ بيده وشمّه، لتطالعه رائحةٌ معتّقةٌ تحوي في تضاعيفها ذكرياتِ أجيالٍ وأجيال. لم يفتحْه بل وضعه على رفّ في الردهة يحوي مجلّداتٍ سميكةً وكتبًا متنوعةً، كلّها قديمة جدّاً، وكلّها مجلدة بأنواع الجلود الملوّنة الفاخرة. أمرَّ يدَه عليها، فتطايرتْ منها ذرّاتُ غبارٍ دقيقة توهّجتْ عندما مرّت في إطار عمود نور الشمس الذي دخل الغرفة عبر زجاج نافذة الصالة الملوّن. وقف أمام هذه الكتب ينظر إليها بسعادةٍ ووله: فهي كلُّها ذكرياتُ الأمسيات المسحورة التي يقضيها مع سيدته، تتركها وراءها عندما تنتهي من قصّها لتعودَ في الزيارة القادمة مع كتابٍ جديدٍ وقصةٍ جديدةٍ وعالمٍ جديد. والعمّ عيد يعيش قانعًا مع ذكريات السيدة وقصصها الرائعة بين الزيارة والأخرى، وينتظر عودتها وحيدًا.

كامبريدج